مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٨، العدد ٣١ (صيف ١٩٩٧)، ص ٤٥

دراسات

محمد عزة دروزة
الشاهد.. والمفكر.. والمؤرخ
من خلال مذكراته السداسية

بيان نويهض الحوت*

ليس هذا البحث محاولة نقد بالمعنى المتعارف عليه لمذكرات المؤرخ محمد عزة دروزة، وإنما هو – كما يبدو من العنوان – محاولة للتعرف إلى المؤرخ من ثلاثة أوجه يكمل بعضها بعضاً، ويؤثر واحدها في الآخر، وهي: صدقية الشاهد ورؤيته الإنسانية؛ جديد المفكر؛ إنصاف المؤرخ.

لكن، إنصافاً لتاريخ فلسطين، نعرض – بدايةً – أربع إشكاليات رئيسية يتعرض لها مجمل الكتابات الفلسطينية التاريخية:

الإشكالية الأولى تبدأ من ضياع فلسطين الوطن، ومن ضياع معظم الوثائق والأوراق الرسمية والخاصة؛ لذلك، فمرحلة الشتات والتيه في الخمسينات، لم يكن أسوأ ما فيها هو ما يُرى أو يعاش، بل ما هو في العقل والوجدان؛ ولمّا لم يكن قد وُجد بعد، في تلك المرحلة، مكتبات غنية حاضنة للتراث والفكر وغذاء العقل، فقد بات الاعتماد شبه الكلي على ما يكتبه رجال المرحلة المعاصرون لها من ذكرياتهم، ومما أنقذوه من بقايا أوراقهم، دون تمكن هؤلاء من الحصول على الحد الأدنى من مصادر ومراجع تتوفر للمؤرخين في الشعوب الأُخرى. وهكذا اتسمت هذه المرحلة بهالة من التقديس والإعجاب بكل ما يصدر عن مؤرخيها الذين تصدوا، على الرغم من الصعوبات، للكتابة الشاملة عن فلسطين وقضيتها.

الإشكالية الثانية تنبع من أن الذين قاموا بعبء التأريخ في تلك المرحلة، سواء من كان منهم مؤرخاً بالمصادفة، أو مؤرخاً هاوياً، أو مؤرخاً محترفاً، كما يصنفهم نقولا زيادة.[١] كانوا في معظمهم من رجال تلك المرحلة، من رجال القرار والحدث والمسؤولية؛ وهكذا، تلونت كتاباتهم التاريخية، شاؤوا أم أبوا، باللون "الذاتي

---

* أستاذة مادة القضية الفلسطينية في كلية الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة اللبنانية.

[١] نقولا زيادة، "الكتابة التاريخية في فلسطين من حوالي عام ١٨٥٠ إلى حوالي عام ١٩٨٥"، في: "الموسوعة الفلسطينية"، القسم الثاني/ الدراسات الخاصة – المجلد الثالث/ دراسات الحضارة (بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٠)، ص ٣٤٣ – ٣٥١.

الذكرياتي". وهذا اللون بالقدر الذي يحمله من أهمية "التوثيق النسبي" إن جاز التعبير، لكونه صادراً عن شهود، فهو يحمل أيضاً صفات أُخرى تنتقص منه، من أبرزها الثغرات في الإطار الشمولي لرواية الأحداث، وإبراز أحداث معينة من دون أُخرى، ورفع شأن أشخاص معينين فوق ما يستحقون، وإهمال آخرين يستحقون.

الإشكالية الثالثة لم تظهر إلاّ مع صدور المجموعات الوثائقية واليوميات عن تاريخ النضال الفلسطيني حتى النكبة. فمع غياب الوطن الذي كان، وغياب المؤسسات العلمية المستمرة والمتوارثة عن ذاك الوطن، باتت المجموعات الوثائقية الخاصة لرجال المرحلة، ذات العناوين الوطنية الشاملة، كأنها هي وثائق التاريخ كله، بينما هي في الحقيقة وثائق تنحو إلى الرفع من شأن حزب على آخر، وأشخاص على آخرين، الأمر الذي أدى، وما زال يؤدي إلى حالة انعدام وزن في المرجعية الوثائقية نفسها، وهي التي كانت الأمل بملء الثغرات الناجمة عن فقدان المؤلفات التاريخية الشاملة. ولن تنتهي هذه الإشكالية إلاّ بعملية تجميع ضخمة لوثائق فلسطين، من مختلف المصادر.[٢]

الإشكالية الرابعة تتلخص في انعدام النقد بالنسبة إلى نتاج الرواد من المؤرخين الأوائل. وهكذا، فالهالة التي أحاطت بهم منذ الخمسينات استمرت، واستمروا هم يكتبون بالطريقة نفسها، حتى بعد ظهور مؤسسات البحث العلمي المتخصصة بالقضية الفلسطينية، وبعد اهتمام الكثير من الجامعات العربية بتوفير "الكتاب الفلسطيني". وفي الوقت نفسه، استمر أبناء الجيل الأول من بعدهم، وكذلك الجيل الثاني، يقرأون لهم، وينقلون عنهم، من دون أن يكونوا مسلحين بأي أدوات تعينهم على تفادي المحاذير، إلاّ ما يكتشفونه بأنفسهم.[٣]

نخرج من هذه الإشكاليات الأربع بالسؤال التالي: هل نستمر في نظرتنا إلى كل ما يصدر عن هؤلاء الرواد بهالة من التقدير والاحترام تمنعنا من ولوج آفاق الرأي والنقد؟ نعتقد أن الأوان آن.

---

[٢] أبرز المصادر هي الوثائق البريطانية، وأرشيف الجامعة العبرية حيث المجموعات الوثائقية التي حصدتها إسرائيل بعد الاحتلال من مكاتب الأحزاب والهيئة العربية العليا، بالإضافة إلى وثائق جامعة الدول العربية بشأن فلسطين التي ما زال القسم الأهم منها لم ينشر بعد.

[٣] احتوى معظم الكتابات النقدية لهذا التراث على تلخيص أو إعادة أو تمجيد، لا على نقد موضوعي. لكني أستثني دراسة للكاتب الياس سحاب، ولعلها كانت الأولى في باب النقد الجاد المسؤول. راجع: الياس سحاب، "الفكر السياسي الفلسطيني بعد عام ١٩٤٨: الكتابات السياسية الفلسطينية حول القضية الفلسطينية"، في: "الموسوعة الفلسطينية"، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٣ – ٦٣٣.

المربي والمجاهد

من خلال تسلسل المراحل التي عاشها المؤرخ محمد عزة دروزة، تبرز صفتان ملازمتان لسيرة حياته، هما: صفة "المجاهد" وصفة "المربي" التي لا تنبع فقط من مرحلة محددة عمل فيها في مدرسة النجاح في نابلس معلماً ومربياً ومديراً، بل أيضاً لأنه كان ذاك المربي البعيد الأثر في نفوس طلابه، ولأنه استمر "مربياً" نفسية وعقلية وأسلوباً.

أخذ الوعي السياسي لدى دروزة يتطور مع صدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨. وهو، بحكم وظيفته في بريد نابلس التي تولاها منذ سنة ١٩٠٦، أخذ يقرأ جرائد "المؤيد" و"الأهرام" و"المقطم" والكثير من الصحف التي كانت تتسرب إلى نابلس بالبريد؛ وهذا ما جعله واعياً لأهمية "الدستور" في بناء الدولة، وهو الذي لم يتخط المرحلة الإعدادية في دراسته.

بعيد صدور الدستور سنة ١٩٠٨، انتسب دروزة إلى نادي جمعية الاتحاد والترقي في نابلس. غير أنه لمّا تيقن من مخطط الاستعلاء العنصري الطوراني الذي يسعى لإبقاء العرب أقل درجة من الأتراك، انفصل عن النادي وأسس مع رفاق له فرعاً لحزب الائتلاف والحرية المعارض، لكنه اضطر إلى مغادرة نابلس بحكم عمله موظفاً في البريد. وكانت بيروت آخر المطاف في وظائفه "البريدية" العثمانية؛ وهذا ما أتاح له قرب الصلات برجال الحركة العربية. أمّا لقاؤه الدكتور أحمد قدري فقد انتهى بانضمامه إلى جمعية العربية الفتاة السرية سنة ١٩١٦.[٤]

ابتدأت مسيرة جهاده العلنية منذ المؤتمر الأول الذي عقد في القدس سنة ١٩١٩، وتواصلت في دمشق خلال العهد العربي الفيصلي، حيث تجدد نشاط الجمعية العربية الفتاة السرية، وأصبح من أركانها، وسكرتيراً لها. كما ساهم في إنشاء الجمعية العربية الفلسطينية، وأصبح عضواً وسكرتيراً للمؤتمر السوري. ولمّا عقد المؤتمر جلسته الشهيرة في ٦ آذار/مارس ١٩٢٠، ووافق على إعلان الاستقلال وعلى إعلان فيصل ملكاً على "جميع سورية الطبيعية"، كانت الوقفة الشهيرة لدروزة في ٨ آذار/مارس يوم تلا الإعلان التاريخي بالاستقلال من شرفة البلدية في دمشق؛ وأمّا بعد معركة ميسلون في ٢٤ تموز/يوليو ١٩٢٠، وسقوط دمشق، وخروج فيصل من البلاد، فقد كان دروزة من الخارجين، ومن المغضوب عليهم من الفرنسيين؛ وهو يذكر أنه فُرض على فيصل المغادرة في الصباح الباكر حتى لا يكون له وداع حافل.[٥]

---

[٤] "ترجمة صاحب المجموعة [عزة دروزة]"، نسخة عن مخطوطة من ٣٣ صفحة، محفوظة بالأصل في مكتبة دروزة الخاصة، ص ١ – ٤؛ م [مجلد] ١/ص ٢٨٠ – ٢٨٢.

[٥] م ١/ ص ٤٨٢.

بدأ عمله السياسي في فلسطين مجدداً من خلال المؤتمرات الوطنية والإسلامية، ومن خلال تأسيسه مع رفاق له "حزب الاستقلال العربي". وقد عمل أيضاً سكرتيراً للمجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في القدس، وعضواً في اللجنة العربية العليا، كما كان من معتقلي صرفند سنة ١٩٣٦. أمّا بعد خروجه من المعتقل، فقد غادر فلسطين كي يمثلها في مؤتمر بلودان سنة ١٩٣٧. غير أن الأمور في الداخل كانت تسير نحو الانفجار؛ فلمّا حلت حكومة الانتداب اللجنة العربية العليا ونفت من نفت من أعضائها، ومنعت الباقين من العودة، كان دروزة من هؤلاء الممنوعين من العودة.

تسلّم دروزة مهمات نضالية جديدة من الخارج. فكان المسؤول عن اللجنة المركزية للجهاد التي أُلفت في دمشق حلقة وصل بين الثورة الكبرى في الداخل وبين قيادة المفتي الحاج أمين الحسيني في لبنان.[٦] لكن السلطات الفرنسية اعتقلته، عقب صدور الكتاب الأبيض، في دمشق في ٣ حزيران/يونيو ١٩٣٩. وبقي معتقلاً نحو خمسة عشر شهراً، ليجابه فيما بعد حياة المنفى في تركيا، مع رهط من إخوانه المنفيين، حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ولمّا أُنشئت الهيئة العربية العليا عُيّن أحد أعضائها، لكنه لمّا يئس من تغيير جذري في سياسة المفتي الفردية قدم استقالته، وامتنع بعد ذلك، أي منذ تموز/ يوليو ١٩٤٧، من القيام بأي دور مباشر في الحياة السياسية العامة.

هذه المذكرات

صدر القسم الأول من مذكرات دروزة سنة ١٩٨٢ عن دارين مختلفتين،[٧] ثم أصدرت دار ثالثة مجموعة الأجزاء العشرين التي كان المؤرخ كتبها كاملة في ستة مجلدات تحت عنوان: "مذكرات محمد عزة دروزة..."[٨] أمّا الناشر الأستاذ الحبيب

---

[٦] راجع فيما يتعلق بنشاط اللجنة المركزية للجهاد: م٣/ ص ١١٢ – ١٢٦.

[٧] أول مرة صدر فيها الجزآن الأول والثاني بعنوان: "مذكرات وتسجيلات مائة عام فلسطينية"، الجزء الأول (دمشق: الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار والمركز الجغرافي، ١٩٨٤)؛ والجزء الثاني، ١٩٨٦.

وثاني مرة بعنوان: "خمسة وتسعون عاماً في الحياة: مذكرات وتسجيلات"، تحقيق علي الجرباوي وحسام نعيم الشخشير، الجزء الأول (القدس: الملتقى الفكري العربي، الطبعة الثانية، ١٩٩٣). (أشارت دار الملتقى الفكري العربي إلى الطبعة الأولى التي أخذت عنها وهي المذكورة أعلاه، لكن هذه الطبعة الثانية قد أُضيفت إليها هوامش التحقيقات التي قام بها المحققان).

[٨] محمد عزة دروزة، "مذكرات محمد عزة دروزة ١٣٠٥ هـ – ١٤٠٤هـ/ ١٨٨٧ م – ١٩٨٤ م: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية"، ستة مجلدات (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣).

اللمسي، فهو الأقرب إلى جيل الرواد عقيدة ووفاء، ومن الذين يلتفتون إلى التراث العربي والإسلامي، لا بدءاً بأمثال الثعالبي، ولا انتهاء بأمثال دروزة.[٩] الميزة الكبرى لهذه المذكرات أنها ليست مذكرات سياسية فحسب، بل هي أيضاً سفر غني يشمل كل نواحي الحياة، من عمرانية واجتماعية واقتصادية ونضالية، في مختلف الأماكن التي عاشها المؤرخ؛ وهي المذكرات الأطول زمناً بين أبناء جيله كلهم.

تتألف المذكرات من ستة مجلدات، وتربو صفحاتها على أربعة آلاف صفحة (٤٢٤٢ صفحة). وباستثناء المجلد السادس، تحتوي المجلدات الخمسة الأولى على مذكرات، وعلى يوميات كتبها المؤرخ في حينه؛ فهي بمعنى أدق، يوميات أكثر منها مذكرات. وتحتوي أيضاً على ما يرافق مذكرات السياسيين من تراجم للشخصيات والأصدقاء الذين عرفوهم عن كثب، ومن حوارات مهمة، ومن رسائل، ومن وثائق.

أمّا المجلد السادس، فهو يتميز بتناوله مرحلة ما بعد النكبة؛ أي بعد اعتزال دروزة العمل السياسي. ولمّا كان معتكِفاً عن كتابة أي يوميات أو مذكرات في هذه المرحلة، ومنزوياً في بيته مراقباً للأحداث ومؤرخاً ومشاركاً في إبداء الرأي عبر رسالة أو مقابلة، فقد آثر أن يجمع في هذا المجلد مجموعة من المقالات والرسائل والمذكرات الرسمية كان رفعها مع بعض الرفاق القدامى، أو بمفرده، إلى زعماء عرب أو قادة أحزاب أو قادة جبهات. وأهمية هذا المجلد تكمن في كونه يعطي، بمجموعه، صورة حية لفكر المؤرخ دروزة العروبي.

ولكن... تشتمل المذكرات أيضاً على ما لا يتوقع وجوده في مذكرات، وهو التالي:

– اليوميات المنقولة عن الصحف، أو الملخصة عن الصحف أو عن الإذاعات. وقد يكون طبيعياً أن يلجأ صاحب المذكرات إلى الصحف، أحياناً، من أجل ربط معلومات بعضها ببعض مثلاً، أو لسد ثغرة ما. لكن هذه اليوميات "المؤرشفة" تمتد حتى تكاد تبتلع مجلداً بكامله، وخصوصاً المجلدين الثاني والثالث. وهي تبدو نشازاً في المذكرات لصعوبة تصنيفها حتى ضمن "اليوميات" المتعارف عليها؛ ذلك بأن مصادرها، أي أسماء الصحف، تُذكر أحياناً، وأحياناً كثيرة لا تذكر، إذ يكتفي بالإشارة إلى أنها منقولة عن الصحف بصورة عامة، وغالباً تذكر التواريخ، لكن هذا لا يعني الالتزام بذلك. وهكذا فقدت هذه "اليوميات" حتى أهمية "الأرشفة" إن جاز التعبير.

– تلخيص للأحداث السياسية الدولية والإقليمية والعربية. ومن الجلي أنه تلخيص مستمد من الصحافة عامة ومن المطالعات والإذاعات. وعلى الرغم من أهمية

---

[٩] تجدر الإشارة إلى عدد من الثغرات في عملية النشر، أهمها: خلو المذكرات من فهرست جامع للأسماء وللأماكن وللمؤسسات. وعدم اتباع طريقة موحدة في التبويب والترقيم، ووجود وثائق ضمن النص لا عناوين لها في المحتويات (م ٢/ ص ٢٩٣ – ٣٠٨).

الموضوعات التي عالجها فإن الكتابة التاريخية تنأى عن نهج مذكرات خاصة لها أهمية مشاركة صاحبها في القرار أو في الرؤية أو في التحليل؛ والمجلدان الرابع والخامس إجمالاً على هذا النحو.

تتلخص المشكلة الرئيسية للمذكرات في أن صاحبها يعتبر أن كل ما يخطه قلمه، إنشاء أو نقلاً أو تلخيصاً، شبه مقدس لا يمس. فلا تفرقة لديه بين نص ونص، بين نهج ونهج. ولا تفرقة لديه بين كتابة من الذاكرة تحتوي على التحليل والتعليق وسير الشخصيات والحوارات وتتميز بالكثير من الصور الحية للزمان والمكان والبشر، وبين مئات الصفحات من المنقول والملخَّص والمؤرشف.

وإنصافاً لصاحب المذكرات ننقل عنه ما قاله في شأن الأخطاء، وفي شأن "التفويض بالحذف":

> .... ومن المحتمل أيضاً أن يكون في ما دونت أخطاء أو أغلاط أو التباسات في الأسماء والأعلام والتواريخ والأحداث والوقائع والعصمة لله وحده.
>
> .... وأفوض من يشرف على طبع هذه المذكرات بحذف أي عبارة يراها نابية أو فيها جنف[١٠] أو مجافاة لما يعلمه من الحق والحقيقة ولما يثق به ممن يعلمون الحق والحقيقة.[١١]

لست جازمة أن المشرفين على إعداد هذه المذكرات وطباعتها[١٢] لم يحذفوا شيئاً مما طلبه صاحبها من عبارة هنا أو هناك. ربما فعلوا ذلك. لكنني جازمة أنه كان هناك الكثير من الجمل وحتى الفقرات التي يجدر حذفها بناء على تفويضه وطلبه.

الشاهد والإنسان

لو قيض لكل مدينة في فلسطين مَنْ يكتب عنها بتلك الروعة والمحبة والوصف الدقيق، كما كتب دروزة عن نابلس وجوار نابلس، عن المدينة والقرى المحيطة بها، لما خشينا يوماً ضياع صورة الوطن، ولا تراث الوطن، ولا تفصيلات الوطن.

---

[١٠] المقصود بالكلمة "ميل"، والشرح لصاحب المذكرات أصلاً.

[١١] م ١/ص ٤١.

[١٢] تخلو مجلدات المذكرات الستة، الصادرة عن دار الغرب الإسلامي، من الإشارة إلى أسماء محققين أو مشرفين على إعداد المذكرات للنشر.

يتحدث دروزة عن الأحياء والخانات والدكاكين، عن البساتين والمياه، عن الزراعة والصناعة والصابون، عن البيوت وداخل البيوت من فرش وإضاءة تبدأ بالسراج وتمر بالمصباح، غير متجاهل الفوارق بين طبقة وأُخرى في عمارة بيوتها، وفي عاداتها وتقاليدها. يتكلم عن البيوت الإقطاعية وبيوت المتوسطين والفقراء، ويسمي العائلات بأسمائها، وهو في وصفه لحمّامات نابلس يُغْني أي مخرج سينمائي عن المزيد. أمّا كيف عرف أسماء الأدوات التي كانت النساء يستعملنها، وكيف عرف أدق التفصيلات في عادات الحمّامات العامة لديهن، فلغز لم أستطع حله.

ومع استغراقه في التفصيلات، لا يفكر دروزة كثيراً في ترتيب ذكرياته عن نابلس. فهو ينتقل من الحمّامات إلى المساجد والمعابد، وإلى الحديث عن علماء الدين والمشايخ والمواسم الدينية، ثم يعود ثانية إلى الحديث عن الأزياء وأنواع الأقمشة التي كانت النساء يستعملنها، وأشكال الزينة. ولا يغفل أبداً عن كل أنواع الطعام، فيشرح تلك التي للميسورين وتلك التي للفقراء. وتنال الحلويات نصيباً خاصاً؛ فهو يصف طريقة صنعها بدقة تعجز سيدات البيوت عنها. أمّا الكنافة، أكلة نابلس الشهيرة، فهو في ذكره الدقيق لكيفية صنعها يعطي الدليل القاطع على نسبه النابلسي العريق. وفي مكان آخر يقدم شرحاً مطولاً يتعلق بالمدارس وطرق التربية والتعليم، ويقول إن نابلس لم تعرف المدارس الابتدائية قبل عهد السلطان عبد الحميد، وأنه درس المرحلة الابتدائية في مدرسة الشيخ محمد زعيتر من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٠. كما وصف الكتاتيب كأنه ما زال فتى صغيراً يروي لأبيه ما جرى معه في الأمس.[١٣]

سواء أكان ما سرده دروزة بدقة وتشويق من الذاكرة، أم أنه سأل وبحث واستقصى، فحال الثانية ليست أقل شأناً من الأولى. إن هذه الصفحات التي كان فيها الشاهد المتنبه للشاردة والواردة، في نابلس نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ترشحه ليكون الشاهد الأول على مسقط رأسه.

وليس حبه لمدينته هو السبب وحده؛ فهو بالقدرة نفسها أجاد وصف الأماكن التي سكنها، أو حتى تلك التي زارها أو مر بها. وقد كان يعطي العادات والحياة الاجتماعية والاقتصادية وصفاً دقيقاً. ولو عاش دروزة في عصور السابقين لكان ربما من الرحالة الكبار، ولكانت كتب رحلاته هي الأهم في كتاباته. أمّا من مشاهداته النادرة، فكان هناك وصفه للمجاعة الكبرى في لبنان خلال الحرب العالمية الأولى،[١٤] وكذلك وصفه لمشاهد الأرمن المنفيين من الأناضول في عهد "الاتحاديين".[١٥]

---

[١٣] راجع: م ١/ ص ١٤٥ – ١٤٦.

[١٤] راجع: م ١/ ص ٢٨٨ – ٢٨٩.

[١٥] راجع: م ١/ ص ٢٥٤.

إن تلك الصفحات التي تربو على المئة، والتي سجل دروزة فيها ذكرياته عن نابلس،[١٦] مع عشرات من الصفحات المتناثرة هنا وهناك عما يمكن تصنيفه في أدب الرحلات، هي الأروع والأمتع في المذكرات كلها؛ وذلك لكونها وصفاً رائعاً دقيقاً ينبع من شهادة إنسان يرى بالعين والعقل والقلب والوجدان؛ وأيضاً، لكونها العنصر المفاجيء. فكتابته السياسية والتاريخية لم يكن فيها جديد يذكر بالمقارنة مع كتبه التاريخية المعروفة، إلاّ من حيث بعض التفصيلات، ومن حيث سير حياة الأصدقاء ورجال السياسة.

لا يقتصر دروزة الشاهد في مذكراته على الأماكن وأحوالها، وعلى البشر وحياتهم ومختلف أوضاعهم، فهو – حين يشاء – شاهد لا يبارى على تاريخ المرحلة، موجزاً رأيه، مترفعاً عن العلاقات الحميمة أو المتنافرة، مبتعداً عن التفصيلات الصغيرة كما عن الصغائر، صاحب ضمير عارك الأحداث وعاركته، شارك في صنعها وصنعته، تعرّف إلى زعمائها وعرفوه؛ فهكذا، كان تحليله لثورة الشريف حسين بن علي، بحيث يمكن وصفه بالقول: "كان شاهداً على العصر."

رأى دروزة أن الأمة العربية لو كانت، في خضم الحرب العالمية الأولى، أكثر حيوية وأشد نضجاً، لكان في إمكانها الاستفادة من الوعود التي قُطعت لها. ورأى أن الثورة العربية بكل مجهوداتها الحربية كانت رافداً للحلفاء لا أكثر، وهي لو لم تكن لانتصر الحلفاء أيضاً. لكن لولا تلك الوعود، ولولا تلك الثورة، لما تمكن العرب من القيام بثوراتهم فيما بعد ضد الاستعمار، ولكانت وطأة البلاء الاستعماري على بلادهم أشد وأقوى؛ أي أنه رأى أن الثورة كان لا بد منها للانطلاق بالأمة مهما تكن النتائج.[١٧] كما رأى أن أهم أسباب انهيار الحكم الاستقلالي الفيصلي يعود إلى غدر بريطانيا وفرنسا وإلى نياتهما الاستعمارية التسلطية التي أكد أنها "جعلتهما تتنكران لكل القيم الأخلاقية، فتقطعان عهودهما ووعودهما للعرب أثناء الحرب، بينما كانتا تبيتان الغدر والخيانة لهم، مما جعل العرب يثقون بهم ويحاربون في صفوفهم ويبلون البلاء الحسن الذي ساهم على كل حال في النصر الذي أحرزتاه مع حلفائهما...."[١٨]

إن وقفة دروزة الشاهد على الثورة العربية الكبرى، بكل تعمق وأناة وتجرد، لا تقابلها في مذكراته وقفة مماثلة تشهد على النكبة الفلسطينية. ولمّا كان هو "شيخ

---

[١٦] راجع: م ١/ ص ٤٦ – ١٥٩.

[١٧] راجع "خواطر وتعليقات أُخرى على الثورة الهاشمية" في: م ١/ ص ٢٦٨ – ٢٧٨.

[١٨] م ١/ ص ٤٨٥.

المؤرخين"، فهو المطالب بوقفة نقدية شاملة لمأساة فلسطين، تنبع من أعماق الوجدان والذاكرة.

لماذا لم يتكلم دروزة كشاهد "بكل معنى الكلمة" في مذكراته على مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية، وهو الأَولى بالقيام بذلك؟ لماذا لم يشهد على أخطاء القيادة وخطاياها، مكتفياً بالإفاضة في فردية المفتي خلال مرحلة الهيئة العربية العليا؟ لماذا لم يشهد على الدور الحقيقي الذي أدته الدول العربية وقد كان أحد الجالسين في اجتماعاتها؟

لا أدعي أن لديّ جواباً شافياً. لكنني أستطيع القول إن الكثيرين من الذين كانوا في مواقع مماثلة لم يتركوا للتاريخ شهاداتهم؛ القلة من هؤلاء فعلت، والأكثرية تمنعت أو تركت لنا تحليلات عامة جداً، أو آثاراً ضئيلة لا تفي بأي صورة شاملة، بدءاً بالمفتي الحاج أمين الحسيني، مروراً بعوني عبد الهادي وجمال الحسيني، وصولاً إلى الكثيرين من الصف الثاني والثالث ومن المناضلين.

أمّا الوجه الثالث الذي برزت فيه شهادات دروزة بكل عمق وتفصيل أحياناً، وباختصار أحياناً أُخرى، فهو شهاداته في الآخرين، في الرجال، وما أكثر ما عرف من هؤلاء في كل عهد، حتى إن عدد الذين كتب عنهم يحتل خانة المئات لا العشرات؛ وهذه الشهادات أو التراجم التي كان يكتبها كلما ورد اسم صاحبها أول مرة هي من الميزات الرئيسية لمذكراته. وتتفاوت شهاداته بحكم قرب معرفته بصاحب السيرة. أمّا الصفة الأعم التي يصف بها أصدقاءه الخلّص، فهي "الحميمية". إذ هناك العشرات من الأسماء وصف أصحابها بأنهم "حميمون"، أو قال عنهم "وكانت تربط بيننا صداقة حميمية." وفي المقابل، كثيراً ما قال: "ولم تقم بيننا صداقة حميمية." وهناك درجة أدنى من الحميمية لديه هي "الصداقة الوطيدة".

لكن، ماذا عن شهادة دروزة بنفسه؟ أو ... كيف يتعرف القارىء إلى دروزة الإنسان من مذكراته؟

رجل طموح. رجل عصامي. لم ينتقل من مسؤولية إلى أُخرى إلاّ بإثبات للذات طالما كلفه جهد الليالي. غير أن الجد المتواصل ما أنساه حب الحياة. كان يعشق الطبيعة، يحب الرحلات، يحب السمر. هو إنسان بكل معنى الكلمة، يصيب ويخطىء، يحب ويكره، يتسامى ويحقد، ينصف الآخرين ويتحامل عليهم، يعدل ويظلم، يقول الحق ويحجبه. وليس هناك من أي عتب أو نقد على صاحب مذكرات يسجل قلمه ما شاء من ذكريات.

يعيب دروزة على الآخرين اعتدادهم بأنفسهم، فيذكر صفتهم تلك بنوع من النقد. لكنه لا ينتقد ذاته، ويبدو صريحاً كل الصراحة في نقل مديح الآخرين له؛ إذ أبدى في مرات لا تحصى إعجاب الناس بمقالاته. كما كان يكرر الفخر بنفسه بوضوح لا بين السطور، حتى بات وصفه للكثير من الأعمال التي قام بها ملازماً لكلمتي "ولا فخر".

يقول في خطابه الذي ألقاه في الحفل التأبيني الذي أقيم للشريف حسين في القدس سنة ١٩٣١: "وكانت خطبتي قوية بليغة ولا فخر أشدت فيها بثورة الحسين وآثارها..."[١٩]

أمّا في العمل السياسي، فدروزة ما أبدى يوماً تذمراً من منصبه كسكرتير في معظم المؤتمرات والجمعيات التي عمل فيها، وإنما على العكس من ذلك؛ فقد كان يظهر سعادته بانتخابه سكرتيراً في هذا المؤتمر أو ذاك.[٢٠] غير أن هذا لا يعني أنه لم ير في نفسه القدرة على الزعامة. ففي أثناء النفي إلى تركيا، جرت حوارات ورسائل متعددة بشأن الذين يرغب المفتي في التحاقهم به إلى ألمانيا. وقد طلب ذلك من دروزة أكثر من مرة، غير أنه كان أبي النفس، فعلق على كل الرسائل التي دعاه فيها المفتي بأنها لا تتصف بالجدية الكافية. ولذلك رفض الذهاب معللاً الرفض بثقل سمعه وصعوبة ذلك في السفر، ثم شارحاً علاقته الوطيدة بالمفتي من خلال اللجنة المركزية، حين كانت الحاجة متبادلة بينهما من أجل شؤون الثورة، ومستنتجاً أن الحال قد تبدلت، وأن الاهتمام الذي كان يظهره له المفتي سابقاً قد تحول، فيقول:

> .... وهم [الرجال المحيطون بالمفتي] يعرفون أني لا أرى نفسي أقل شأناً في القضية والجهاد من المفتي نفسه، وأن تضامني معه هو تضامن الزميل والند لا تضامن الفناء أو الولاء الشخصي. وقوة هذا الميزان عندهم تجعلني أتوجس وأميل إلى التحوط لئلا أصادف حالة تزعج نفسي في أوروبا وفي عالم غير عالمي.[٢١]

من خلال هذا التعليق تبرز ثلاث نواح من شخصية دروزة: الأولى إباؤه الشديد وترفعه وكرامته التي كانت لها المكانة الأولى لديه؛ والثاني توجسه الحقيقي من السفر إلى عالم خارج العالم العربي أو الإسلامي. وهو على الرغم من دراسته للفرنسية في حداثته، ثم انكبابه عليها بجهده الشخصي لإتقانها إلى حد الترجمة عنها، فإن "الفرنسية" التي دخلت عقله لم تدخل وجدانه، فهو لم يكن على صلة ولا تواصل بالثقافة الفرنسية، ولا بأي ثقافة أجنبية أُخرى؛ وأمّا الناحية الثالثة، فهي قوله أنه ليس أقل شأناً من المفتي. وتعليقنا عليه لن يتناول النواحي النفسية وإنما السياسية المحضة؛ إذ إن الأعمال الجليلة التي قام بها دروزة في اللجنة المركزية للجهاد قام

---

[١٩] م ١/ ص ٥٠٨. راجع للمثال: م ١/ ص ٣٨٥؛ م ١/ ص ٣٩٣.

[٢٠] راجع، للمثال، انتخابه سكرتيراً لمؤتمر بلودان في: م ٣/ ص ٩.

[٢١] م ٤/ ص ١٠٥.

بها بدايةً بطلب من المفتي، واستمر فيها بدعم من المفتي؛ فهو لم يكن زعيم ثورة، ولعله قال ما قاله بغضب آني، فليس في كل المذكرات ما يوحي بأن دروزة كان حقاً يعتبر نفسه نداً للمفتي.

المفكر

كان دروزة غزير الإنتاج إلى حد لا يبارى؛ إذ إن له أكثر من أربعين مؤلفاً في الموضوعات الإسلامية والتاريخية والقومية والفلسطينية والإسرائيلية، والكثير منها يتألف من جزأين أو عدة أجزاء. ولو حسبنا الأجزاء لارتفع العدد إلى ما فوق السبعين. وعلى الرغم من أن بعضها مكرر عن كتب سابقة له، أو هو مجموعة من المقالات المنشورة، أو كتب مدرسية، فإن دروزة يبقى مع ذلك الأول في غزارة الإنتاج بين أبناء جيله من الكتّاب. وأكثر كتبه شهرة هو "حول الحركة العربية الحديثة" في ستة أجزاء، وقد عاد فنشر ثلاثة منها بعنوان "القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها" في جزأين.[٢٢]

إن غزارة إنتاج دروزة تظهر نشاطه الجم كتابة وملاحقة وتتبعاً. فإذا حسبنا هذا الإنتاج بالمرحلة الزمنية التي انكب فيها على التأليف بنوع من التواصل، أي منذ الحرب العالمية الثانية حتى انكبابه على المذكرات في منتصف السبعينات، نجده قد أنجز كتابين أو جزأين في العام الواحد: فهل نستنتج أن التسرع من صفاته؟ وهل يمكن للفكر أن يتعمق ويتجذر مع غزارة في الإنتاج كهذه؟

الجواب يحتاج إلى دراسة مستفيضة لمؤلفات دروزة. لكننا لا نلمس من خلال المذكرات أن المسائل الفكرية كانت لها الأولوية. نعم، لقد مرّ بعض الهموم الفكرية مرور الكرام، لكن الكتابة السياسية وأسلوب المذكرات أو اليوميات الخاصة، طغت عليها، الأمر الذي أفقد المذكرات مناقشات، بل حتى إطلالات فكرية يتوق إليها الباحث عن فكر عزة دروزة. فمذكراته كانت معنية بالكتابة السياسية المسترسلة وبالسرد وبالتعليقات السريعة، لا بالتحليل، مع استثناءات محدودة تطرقنا إلى أهمها، كتحليله لنتائج الثورة العربية.

محمد عزة دروزة في أعماقه إنسان مؤمن إيماناً كبيراً بأمته العربية وبالوحدة العربية. كما أنه مؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً. غير أن اهتمامه بالإسلام طريقاً للجهاد وللعمل السياسي لم يكن وارداً في فكره قبل سنة ١٩٣٧. ففي تلك السنة التي قام خلالها برحلة حج إلى بيت الله الحرام برفقة الحاج أمين الحسيني، اكتشف أهمية اجتماع الشباب المسلمين من شتى الجنسيات، وخصوصاً أولئك المثقفين والبارزين

[٢٢] راجع: "ثبت بمؤلفات محمد عزة دروزة"، في: م ١/ ص ١٠-١٦.

في السياسة والحركات الوطنية، فقال معلقاً: "... حيث خطر لي من ذلك أن فكرة العودة إلى الإسلام حافز ومحرك."[٢٣]

بدأ انكباب دروزة على المطالعات الإسلامية منذ كان في سجن القلعة في دمشق. فهو يروي كيف استطاع جلب عدد من كتب التفسير التي اطلع من خلالها على أسلوب كبار المفسرين، وكذلك كيف تمكن من جلب عدد من أمهات الكتب التاريخية حتى تكونت لديه مكتبة أعانته على الدراسة المتواصلة. وهو، في الوقت نفسه، أتم حفظ القرآن الكريم، وخطر له كتابة تفسير كامل للقرآن وفق ترتيب نزول السور، لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك إلاّ فيما بعد؛[٢٤] وما تمكن من تحقيقه كان مسودات لثلاثة كتب دينية.[٢٥]

عكف دروزة على تفسير القرآن في منفاه في تركيا، ولم يكن بين يديه كتب مفسرين، فاعتمد على ذاكرته من المطالعات السابقة في سجني المزة والقلعة في سورية، وعلى الإلهام، فيقول:

> وكثيراً ما أقف أمام بعض السور أو الآيات متهيباً ذاهلاً أو حائراً أو مغلقاً عليّ، فأحتضن ذلك في ذهني يوماً أو يومين أو ساعات، فلا يلبث أن يفتح الله علي ويلهمني ما ترتاح إليه النفس وما ينسجم مع المعنى والسياق. وإني أرجو الله أن أستمر في هذا العمل الذي يسمح لي أن أقضي وقتاً ممتعاً ومفيداً معاً.[٢٦]

لكن دروزة أعاد النظر فيما كتبه من تفسير بعد استقراره في دمشق، وقراءته مجدداً لكتب كثيرة في التفسير والحديث والفقه، فأعاد صوغ تفسيره السابق وأعده للنشر في اثني عشر جزءاً.[٢٧]

أمّا مجموعته "حول الحركة العربية الحديثة"، فقد بدأها في تركيا، ولا مصادر ولا مراجع لديه إلاّ الذاكرة، وهو يؤكد ذلك عندما يقول: "وما كتبناه في الجزأين الرابع

---

[٢٣] م ٢/ ص ٣٧٧.

[٢٤] راجع: م ٣/ ص ٨٧٤ – ٨٧٨.

[٢٥] الكتب الثلاثة التي كتب مسوداتها في سجني المزة والقلعة، هي: "عصر النبي وبيئته قبل البعثة"؛ "الدستور القرآني في شؤون الحياة"؛ "سيرة النبي من القرآن" (م ٣/ ص ٤٧٣ – ٤٧٤).

[٢٦] م ٤/ ص ٢١٤.

[٢٧] م ٥/ ص ٦٢٠؛ نشرت دار إحياء الكتب العربية في القاهرة "مجموعة التفسير الحديث"، تباعاً منذ سنة ١٩٦٢.

والخامس حول الحركة العربية هو في الحقيقة في باب المذكرات."[٢٨] ولمّا كان هذان الجزآن صدرا بعنوان: "في سبيل القضية الفلسطينية"، في مجلدين، فهو يقترح: "فإننا نرى أن يعاد طبعهما ليكونا في سلسلة أجزاء المذكرات..."[٢٩]

ما ذكرناه أعلاه هو للمثال على أن دروزة لا يفصل إطلاقاً بين ما هو مذكرات وبين ما هو تأريخ. فهو يعتبر أن كل ما يكتبه من الذاكرة كاف للإحاطة بتاريخ المرحلة، وتنتقص هذه النظرة من النهج التاريخي لديه. أمّا النقطة الأهم، فهي مدى تعاطيه الفكري والإنساني مع القلم والكتابة. إذ من الواضح أنه كان أكثر حذراً وأناة في كتاباته الدينية؛ فهو بعد اعترافه بالتفسير بوحي من تفكيره وتأمله، عاد ليعترف بعودته إلى كتب المفسرين، وكان في الاعترافين كبيراً من دون أدنى شك، لكن لا يبدو أنه أعاد النظر في كتاباته التاريخية، إلاّ قليلاً.

لا يطرح دروزة في "مذكراته" نظريات فكرية كي تناقش، باستثناء رسائله الرسمية وملاحظاته في شأن الوحدة العربية في المجلد السادس. وهو يبدو فيها وحدوياً صلباً إلى أبعد الحدود، ولا تخرج شروحاته عن الشروحات المبسطة المعروفة لحزب الاستقلال الذي ساهم في إنشائه. لكن من الواضح أن الأولوية كانت لتفكيره العملي، إذ أخذ ينصب على ضرورة استمرار العمليات الجهادية التي بات يسميها أعمال المغاوير (الكوماندوس). إن التوقف عند مجمل المذكرات والرسائل الرسمية التي أرسلها دروزة في هذه المرحلة، وخصوصاً رسائله المستفيضة إلى رجال الثورة الفلسطينية ورأيه في الكيان الفلسطيني، يظهر كم كان صاحب روح وثّابة لا تلين.

أمّا عن الصلابة العقائدية التي تبدو في فكر دروزة السياسي من خلال مذكراته، فيحد منها عدد من المواقف الثانوية وموقف بارز نتوقف إزاءه؛ وهو انتماؤه الكلي إلى المحور، موافقاً الحاج أمين الحسيني كل الموافقة على ذلك، ومتجاهلاً تجربة الثورة العربية الكبرى في الاعتماد الكلي على الحلفاء، ومبرزاً ومؤكداً تصوير ذلك الانحياز الكامل غير المنقوص إلى زعيم النازية وكأنه الوطنية بعينها، من دون أن يبذل أي جهد فكري على الأقل لتقديم اقتراحات متوقعة من رجل في مكانته، كاقتراح موقف حيادي للمفتي، أو اقتراح لاستمرار الثورة من الداخل. والمستغرب هو حد كبير من السذاجة غير المبررة إزاء "النجاح المزعوم" للمفتي في دولتي المحور. ونختار له أدناه تعليقين مقتضبين:

---

[٢٨] م ٥/ ص ٦٢٠ – ٦٢١.

[٢٩] كتاب دروزة "القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها" المذكور أعلاه، والصادر فعلاً في جزأين عن منظمة التحرير الفلسطينية – دائرة الإعلام والثقافة (الطبعة الثالثة) سنة ١٩٨٤، لا يضم فقط الجزأين الرابع والخامس من كتابه "حول الحركة العربية الحديثة"، بل يضم الجزء الثالث أيضاً.

علق دروزة على ما قاله له بعض الإخوان نقلاً عن إذاعة برلين وصحفها في ١٩٤١/١٢/١٢:

> .... إن صحف برلين أطنبت في هذه المناسبة بالقضية العربية وجهاد العرب، ونشرت صورة المفتي مع هتلر، والذي نرجوه أن يوفق إلى تثبيت قواعد التفاهم على القضية العربية، وأن يكون قد ترك في اجتماعه مع هتلر انطباعاً حسناً وقوياً في الزعيم الألماني، ونرجح أن ذلك قد حصل، فشكل المفتي وقيافته وملامحه مما يجذب مخاطبه ويؤثر فيه....[٣٠]

كما علق على خبر وصول المفتي ورشيد عالي الكيلاني إلى روما في قطار خاص مع حاشيتيهما، وعلى نبأ الحفاوة البالغة بهما، وعلى تعليق الإذاعات الإنكليزية التي قالت إن دول المحور تترسم بسط سيطرتها على المناطق العربية وتقسيمها إلى مناطق نفوذ بينها، في يومياته بتاريخ ١٩٤٢/٢/١١، بما يلي:

> .... ومن السخرية بالعقول أن يقول الإنكليز ما يقولونه بالنسبة لدول المحور، وقد فعلوا في بلاد العرب الأفاعيل من تقسيم واحتلال واستثمار وغدر ونكث ثم تسليط الصهيونية على فلسطين.... ولقد كان رد إذاعة برلين قوياً محكماً....[٣١]

وأمّا تعليقنا نحن، فليس على الموقف السياسي العام في حد ذاته، لكن على "السذاجة" في التحليل السياسي، وكأن هتلر سيتأثر بقيافة المفتي، أو كأن كل الكلام المعسول لن يتحول إلى سم زعاف في حال تضارب المصالح، أو إلى هباء منثور في حال فشل المحور.

المؤرخ

يقول دروزة في شرحه لنهجه "المذكراتي":

> .... إن ما دونت لا ينبغي أن يُعد تاريخاً وثائقياً، ومن المحتمل أن يكون قد غابت عني أمور كثيرة من مختلف تلك

---

[٣٠] م ٤/ ص ١١٣.

[٣١] م ٤/ ص ١٥٠.

> الشؤون نتيجة نسيان أو غفلة أو عدم سماع أو مشاهدة والإحاطة لله وحده.[٣٢]

ويقول:

> ومن المحتمل أيضاً أن يكون في ما دونت أخطاء أو أغلاط أو التباسات في الأسماء والأعلام والتواريخ والأحداث والوقائع والعصمة لله وحده.[٣٣]

وهو يؤكد قوله أعلاه:

> إننا لا نكتب تاريخاً وثائقياً. وإنما ذكريات ومذكرات وبسبب ذلك فإنه قد يكون فيما كتبنا ثغرات في الأسماء والتواريخ والنصوص والوثائق والمصادر، ولكننا لم نر ذلك مقللاً من فائدة ما دوناه في اعتقادنا لأنه مسموعات وممارسات ومشاهدات شخصية.[٣٤]

لكن على الرغم من كل ما تقدم، فلا بد من الإقرار بأن المذكرات شهادات ومراجع رئيسية، ولا بد لمذكرات المؤرخ والرجل السياسي من أن تنال اهتمام طلاب العلم؛ وهذا فضلاً عن أن طبيعة "المؤرخ" في محمد عزة دروزة هي الطاغية في شخصيته، حتى لو تناءى عنها في شرحه لنهجه "المذكراتي".

نتوقف في هذه المذكرات عند موقفين للمؤرخ لا يقعان ضمن معلومات ناقصة، ولا ضمن أخطاء يتوقع ورودها ضمن مذكرات، وهما موقفه من عصبة القسام، وموقفه من بريطانيا ومؤيديها.

موقفه من عصبة القسام

يتلخص موقف دروزة من عصبة القسام في إنكار وجودها ونشاطها كعصبة مجاهدة، وهذا موقف لم يتراجع عنه منذ صدور أول كتبه في القضية الفلسطينية.[٣٥]

ثمة في تاريخ فلسطين إجماع على موقع الشيخ المجاهد عز الدين القسام؛ ولعله الشخصية الوحيدة التي نالت إجماعاً من حولها، من فئات الشعب كلها. إنه هو الذي

---

[٣٢] م ١/ ص ٤١.

[٣٣] م ١/ ص ٤١.

[٣٤] م ١/ ص ٤٣ – ٤٤.

[٣٥] محمد عزة دروزة، "حول الحركة العربية الحديثة"، الجزء الثالث (صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٥١).

رفع شعار: "هذا جهاد، نصر أو استشهاد"؛ وهو الذي نقل البلاد من الركود السياسي إلى أجواء الثورة؛ وهو الذي أدى استشهاده إلى تفجير طاقات الشعب في ثورة مسلحة كبرى من بعده. وما كان القسام ساعياً لمجد أو زعامة، ولا حتى لقيادة ثورة. كان يسعى لانبعاث الثورة. وقد استمر رفاقه على خطاه تواضعاً وسرية في العمل؛ فهم الذين أشعلوا فتيل الثورة، في مرحلتيها، وهم الذين كانوا حقاً مجاهدين بصمت.[٣٦]

يقر دروزة بشخصية القسام الفذة، وبكفاءاته العلمية الدينية والجهادية، كما يقر أيضاً بأن استشهاده كان له أثر في إشعال الثورة الكبرى. وهو يمتدحه بقوله: "وكان ذا علم ديني وحماس ديني ونزعة عربية استقلالية وروح ثورية. وكان بارعاً في الوعظ نافذاً إلى القلوب."[٣٧] لكنه ينكر عليه ثلاث حقائق:

– الحقيقة الأولى هي أن القسام كان مجاهداً مؤمناً بالإسلام وحده طريقاً ونهجاً، وما انتسب إلى أي حزب من الأحزاب.

ناقض دروزة هذه الحقيقة من خلال ثلاثة مواقف: فنشر في سداسيته الشهيرة "حول الحركة العربية الحديثة" سنة ١٩٥١: "وقد كان [القسام].... من الذين انتسبوا إلى فرع حزب الاستقلال في حيفا"؛[٣٨] وقال في مذكراته: "ولقد التقيت به في حيفا في إحدى زياراتي لها بعد إنشاء حزب الاستقلال، وحدثته عن الحزب وأسباب إنشائه وأهدافه، فاستحسن ذلك، ووافق على أن يكون عضواً مؤازراً له"؛[٣٩] وقال في مقال له

---

[٣٦] المراجع عن القسام وثورة القسام كثيرة جداً، ونكتفي بالإشارة إلى أبرز المراجع لمعاصرين للقسام، وهم – من دون استثناء – يقرون بأهمية وجود عصبة القسام وجهادها في فلسطين: صبحي ياسين، "الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦–١٩٣٩" (لا مكان: دار الهنا للطباعة، ١٩٥٩)؛ عجاج نويهض، "الشيخ عز الدين القسام"، جريدة "الأنوار" (بيروت)، ١٩٦١/٨/١٦ [أعيد نشر المقال في كتابه "رجال من فلسطين" (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١)]؛ إبراهيم الشيخ خليل، "رسالة من مجاهد قديم: ذكريات عن القسام"، مجلة "شؤون فلسطينية" (آذار/مارس ١٩٧٢)؛ "وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ – ١٩٣٩: من أوراق أكرم زعيتر" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٩)؛ "الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ – ١٩٣٩: يوميات أكرم زعيتر" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠).

[٣٧] م ١/ ص ٨٦٢.

[٣٨] دروزة، "حول الحركة العربية..."، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ١١٦؛ محمد عزة دروزة، "القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها"، ج ١ ([دمشق]: منظمة التحرير الفلسطينية – دائرة الإعلام والثقافة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤)، ص ١٢٠.

[٣٩] م ١/ ص ٨٦٢ – ٨٦٣.

عن القسام سنة ١٩٦٩: "وكان على صلة وثيقة ببعض أركان حزب الاستقلال"؛[٤٠] ونلاحظ الاختلافات البينة في شهادة مؤرخ كدروزة في الانتماء الحزبي لرجل كالقسام.

إن شائعة أن القسام كان عضواً في حزب الاستقلال مردها ما نشره دروزة سنة ١٩٥١. وقد نالت هذه الشائعة ما نالته من تساؤلات وتحقيقات من الكتّاب اللاحقين. والحقيقة أن القسام لم يكن قط عضواً في حزب الاستقلال؛ هذا ما قاله ثلاثة على الأقل من مؤسسي حزب الاستقلال هم: عوني عبد الهادي عميد الحزب، وعجاج نويهض، ورشيد الحاج إبراهيم صديق القسام الحميم ورجل "الاستقلال" في حيفا مهد القسام؛[٤١] وهذا ما قاله أيضاً القسامي المجاهد إبراهيم الشيخ خليل:

> وأمّا بالنسبة لتبعية القسام وارتباطاته بحزب معين فإن الذي أعرفه معرفة حقيقية ويعرفه العديد من إخواني الأحياء.... بأن القائد لم يكن له أي ارتباط حزبي مع أي حزب من الأحزاب وأن ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الإسلامية وحدها.[٤٢]

– الحقيقة الثانية هي أهمية جهاد القسام الصامت منذ مطلع العشرينات في تكوين عصبته، وفي نشر روح الجهاد.

كان القسام أول من عمل منذ العشرينات على إعداد حركة جهادية سرية للقيام بكفاح مسلح ضد الصهيونيين والانتداب البريطاني، وترافق عمله هذا مع مولد الحركة العمالية في مدينة حيفا. وقد كان من الطبيعي جداً أن تكون التجمعات العمالية بالنسبة إليه ميدان جهاد. لكن المؤرخ دروزة لا يردّ الخلايا الجهادية الأولى إلى القسام، وإنما إلى العمال والمزارعين وحدهم؛ فهم النواة والقيادات والقواعد. وهو يقول إنهم "قرروا تشكيل خلايا تجاهد ضد الإنكليز واليهود والسماسرة وباعة

---

[٤٠] محمد عزة دروزة، "حركة الشهيد القسام وإخوانه"، مجلة "حضارة الإسلام"، العدد العاشر، السنة التاسعة (شباط/ فبراير ١٩٦٩)؛ كما ورد في: م ٦/ ص ١٩٨ – ٢٠٢.

[٤١] عجاج نويهض، "أوراق خاصة"، محفوظة في مكتبة خاصة، ملف "الشيخ القسام" (ما يتعلق بنفي انتساب القسام إلى حزب الاستقلال قائم على شهادة الكاتب، وشهادة عوني عبد الهادي ورشيد الحاج إبراهيم، رفيقيه في "الاستقلال"، إذ يحتوي الملف على حوارات مشتركة وعلى مقاطع من مذكرات رشيد الحاج إبراهيم؛ نويهض، "الشيخ عز الدين القسام"، مصدر سبق ذكره).

[٤٢] إبراهيم الشيخ خليل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩ (استشهد الكاتب بثمانية من القساميين الأحياء [١٩٧٢]، منهم: أبو إبراهيم الكبير، والشيخ سلمان أبو حمام).

الأراضي والجواسيس."[٤٣] ثم يذكر أن من هذه الخلايا انبثقت حركة الشهيد عز الدين القسام.[٤٤] ويضيف، لاحقاً، أن كثيرين من أفراد هذه الخلايا أخذوا يترددون على مجالس وعظ الشهيد القسام، فقامت بينه وبين عدد منهم صلات وثيقة.[٤٥]

ربما كان دروزة على حق في وجود أكثر من خلية جهادية في حيفا، لكنه لم يحدد أسماء، ولا قدّم معلومات مقنعة تؤيد الصورة التي حاول تقديمها، وهي أن الجهاد كان متفقاً عليه بين تلك الخلايا "المتعددة الأصول"، وأن من تلك الأرضية الجهادية الجاهزة انطلق القسام!! كذلك، فهو يرد العمليات الكفاحية المتعددة المعروفة بأنها عمليات القسام وصحبه، والتي كانت عملية "نهلال" أولها، إلى مجموع تلك الخلايا الجهادية المتعددة، وأيضاً من دون تحديد لأسماء، وحتى من دون ذكر لعصبة القسام كإحدى تلك الخلايا!! وما أكثر المصادر والمراجع التي تتحدث عن العمليات القسامية الأولى في حياة القسام. ونكتفي باقتباس من شهادة المحامي حنا عصفور، أحد المحامين المدافعين عن "المتهمين" بعملية نهلال:

> أنا حضرت دروساً لمعلمنا الشيخ القسام. استمعت إليه يتحدث. وراقبته وهو يزورني في مكتبي، المرة تلو المرة، إثر اعتقال شباب نهلال. كان كثير الصمت، قليل الكلام. لم يقل مرة، هؤلاء المعتقلون، أعرفهم، أو أنهم معي. ولكني عرفت ذلك من تكرار زياراته. وعرفت الشيخ القسّام أكثر، وأنا أستمع إلى رجاله الذين دافعت عنهم، وهم بين جدران السجون يتحدثون عنه.[٤٦]

– الحقيقة الثالثة هي أن القسّام قد أنشأ "عصبة" كي تستمر في الجهاد من بعده؛ فاستشهاده في معركة يعبد في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٥ لم يكن نهاية ثورته، إذ استمرت "عصبته" تعمل من بعده وقوداً للثورات، وكانت التنظيم السري الأكثر فاعلية في الثورة الكبرى.

لم يعترف دروزة في مؤلفاته التاريخية بوجود أي تنظيم قسامي من بعد القسّام. كما أنه لم يكن واضحاً بشأن أي تنظيم له في حياته. وقد حاورتُ المؤرخ في بيته في دمشق سنة ١٩٧٤، منطلقة من أن القسّام لم يطلق على حركته اسماً محدداً بهدف

---

[٤٣] م ١/ ص ٦٩٢.

[٤٤] م ١/ ص ٦٩٤.

[٤٥] م ١/ ص ٨٦٣.

[٤٦] حنا عصفور، مقابلة مع الباحثة (بيروت، ١٩٧٣/٣/٢٤).

السرية المطلقة، لكن هذا لا يلغي وجود تنظيم قسامي أو عصبة قسامية مجاهدة. ثم قدمتُ له الأدلة على استمرار عمل "العصبة" أو "القساميين" أو "رجال القسام" أو "رفاق القسام"، من بعد استشهاده، غير أنه بقي على موقفه الغاضب والرافض لتصنيف عصبة القسام أحد التنظيمات أو المؤسسات السياسية في فلسطين.[٤٧]

استمر دروزة على النهج نفسه في مذكراته، بل عززه في تعقيبه على محاكمة القساميين الذين أُسروا في معركة يعبد، بقوله: "ولقد كان لحركة القسّام فصل أخير هو محاكمة المعتقلين من الأحياء."[٤٨]

ويردّ دروزة "الفضل" في اندلاع المرحلة الأولى من الثورة سنة ١٩٣٦ إلى بعض زعماء فلسطين. يقول:

> إن الحركات الثورية لم تحدث ولم تتسع وتتقد إلاّ بجهد بعض زعماء فلسطين الذين رأوا أن يغتنموا فرصة التوتر الذي أحدثه الإضراب العام، فأخذوا يهيئون الأسباب التي يتفجر بها العنف من تحريك للمظاهرات ومن أعمال تفجيرية وتخريبية، ثم من تجهيز وتمويل جماعات تحمل السلاح وتتعرض للدوريات....[٤٩]

وهذا يناقض تاريخ فلسطين، لا تمجيداً لزيد على عمرو، وإنما إنصافاً للتاريخ. إن الحادثة الشهيرة ليلة ١٥ نيسان/ أبريل ١٩٣٦، والتي تتلخص بهجوم ثلاثة من العرب على قافلة يهودية بالقرب من عنبتا في قضاء نابلس، ومقتل يهوديين وإصابة ثالث، والتي أدت إلى تفاقم الأوضاع من بعدها إلى الإضراب الشهير، إنما كانت من عمل القسّاميين؛ إذ عُرف فيما بعد أن المهاجمين الثلاثة كانوا من عصبة القسّام السرية بقيادة الشيخ فرحان السعدي.[٥٠] وهذا فضلاً عن عملياتهم الفعالة طوال المرحلة الأولى من الثورة، أي خلال سنة ١٩٣٦.

أمّا في شأن القسّاميين الذين تعاملوا مع دروزة في أثناء المرحلة الثانية من الثورة الكبرى (١٩٣٧ – ١٩٣٩) يوم كان في دمشق مسؤولاً عن اللجنة المركزية للجهاد، فالمؤرخ يذكر بعض الأسماء المعروفة من بينهم، أمثال أبو إبراهيم الكبير وأبو إبراهيم الصغير والشيخ سليمان العلي؛ غير أنه يذكرهم كرجال قسّاميين

---

[٤٧] محمد عزة دروزة، مقابلة مع الباحثة (دمشق، ٢٢/ ١٠/ ١٩٧٤).

[٤٨] م ١/ ص ٨٦٤.

[٤٩] م ٦/ ص ١٢٧.

[٥٠] بيان نويهض الحوت، "القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ – ١٩٤٨" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٣٣٢.

(سابقاً)، مطلقاً عليهم لقباً جديداً هو "المشايخ"،[٥١] ثم صارفاً جلّ همه لتأكيد عدم وجود أي تنظيم قسّامي، وكأن القسّام لمّا استشهد رحمه الله استشهدت عصبته كلها معه، أو كأن القسّاميين كان عليهم تخطي حاجز السرية في تنظيم دقيق كتنظيمهم، وكشف أوراقهم كاملة أمام القيادة الفلسطينية.

إن الصورة لدى دروزة فيما يتعلق باندلاع المرحلة الثانية من الثورة مغايرة للكتب التاريخية عن فلسطين، بل متناقضة مع معلومات وردت في يومياته، حيث نقرأ عن أخبار الاصطدامات والمعارك في الداخل ابتداءً من منتصف تشرين الأول/ أكتوبر على الأقل، وهذا كما ورد لديه نقلاً عن الصحف.[٥٢] لكنه يتجاوز هذه الأخبار لينسب اندلاع الثورة، هذه المرة الثانية أيضاً، إلى الزعامة الفلسطينية، قائلاً أنه علم أن المفتي أعطى معين الماضي مئة جنيه إسترليني للاتصال بالثوار، وأن الماضي قد اتصل بالشيخ عطية؛[٥٣] وهكذا كانت البداية!! وكأنه لولا المئة جنيه تلك لما اندلعت الثورة في الشمال؛ وهي التي كانت قائمة!! إن الفارق الزمني بين اندلاع الثورة الشعبية وبين حكاية المئة جنيه ليس أقل من خمسة أسابيع على الأقل. أمّا الفارق الزمني بينها وبين تأليف اللجنة المركزية للجهاد في دمشق، وقيام دروزة بالإشراف عليها، منذ أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٧، فيفوق الشهرين، كانت الثورة خلالهما تشتد بفعل القسّاميين وسواهم من الثوار منذ مقتل أندروز، حاكم الجليل، ومرافقه في الناصرة بتاريخ ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٣٧.

وقد ثبت أن اغتيال أندروز كان من عمل القسّاميين؛ فهو الذي كان يتعقب خطاهم في الشمال. واتهمت السلطات البريطانية الشيخ فرحان السعدي بمقتل أندروز، وسرعان ما أعدمته في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر بعد محاكمة صورية، وهو شيخ صائم فوق الثمانين.[٥٤]

ليست المسألة مسألة مفاضلة في الجهاد بين مجاهدي عصبة القسام السرية وبين القيادة الرسمية العليا، التي تولت فعلاً مساعدة الثوار من الخارج ومدتهم بما تستطيع جمعه من السلاح والمال؛ فالعملان متكاملان. وقد كانت مسؤولية دروزة كبيرة في الإشراف على شؤون الثوار، وهو يقول:

> ومنذ أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٧ إلى حزيران/ يونيو ١٩٣٩، استغرقتُ في المهمة التي أخذتها على عاتقي

---

[٥١] م ٣/ص ٣١.

[٥٢] م ٣/ ص ٥٧ – ١٠٩.

[٥٣] م ٣/ ص ٨٩ (هذا ما ذكره في يومياته بتاريخ ١٩٣٧/١١/٧).

[٥٤] "الحركة الوطنية الفلسطينية... يوميات أكرم زعيتر"، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٩ – ٣٤٣.

> استغراقاً كلياً ودؤوباً بدون كلل ولا ملل، وبكل جد وملاحقة حتى لقد صرت أعتقد أني مسؤول عن جميع من يعمل في حركة الثورة في فلسطين.... وإذا كنت لا أرى من حقي أن أقول إنه كان لجهودي تلك، ذلك الأثر الأعظم في هذا النجاح، فإني لا أظن أن أحداً ممن عرف وتابع ما كان من استغراقي وجهودي ينكر أثري في ذلك.[٥٥]

أمّا بالنسبة إلى الأعمال الجهادية التي قامت عصبة القسام بها، فإن طرحها منفصلة عن الثورة كلها مسألة تناقض مسيرة العصبة، بل مشيئتها التي كانت قائمة على العمل بشكل سري. لكن في الإمكان استنتاج القوة الفعلية للعصبة من خلال ما يمكن التوصل إليه من عدد مجاهديها وشهدائها في المرحلة الثانية من الثورة الكبرى، أي ما بين سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٣٩.

ننطلق من مؤلفات دروزة التاريخية التي أورد فيها أسماء لعدد من قادة المرحلة الثانية من الثورة. وقد بلغ عدد هؤلاء لديه (من الذاكرة) أربعة وثلاثين مجاهداً، كانوا جميعاً قادة وقادة فروع.[٥٦] ولدى مقارنة ما أورده من أسماء بجدول شامل للقسّاميين يحتوي على أسماء خمسة وثمانين مجاهداً قسّامياً،[٥٧] يتضح أنه كان الأسماء التي أوردها دروزة ثمانية قسّاميين؛[٥٨] وهذا يعني أن نسبة القسّاميين بين هؤلاء الذين كانوا أكثر من يتعامل معهم، بلغت نحو أربعة وعشرين في المئة.

ولمّا كان الجدول المذكور، المؤلف من الخمسة والثمانين قسّامياً، يضم الشهداء الأبرار الثلاثة الذين قضوا في معركة يعبد بتاريخ ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٥،[٥٩]

---

[٥٥] م ٣/ ص ١١٦ – ١١٧.

[٥٦] راجع: دروزة، "حول الحركة العربية..."، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٠٧ – ٢٠٩؛ الصفحات نفسها مكررة في: دروزة، "القضية الفلسطينية..."، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢ – ٢١٤.

[٥٧] بيان نويهض الحوت، "الشيخ المجاهد عز الدين القسام في تاريخ فلسطين" (بيروت" دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٧)، ص ٨٩ – ٩٣ (يستند "جدول الأعضاء في عصبة القسام" إلى ثمانية مصادر رئيسية، وردت في المصدر نفسه، ص ٩٤).

[٥٨] هم: توفيق إبراهيم (أبو إبراهيم الصغير)، يوسف سعيد أبو درة، أحمد التوبة، عبد القادر الحسيني، الشيخ محمود الخضر، الشيخ محمود سالم، محمد محمود صفوري، الشيخ خليل العيسى (أبو إبراهيم الكبير).

[٥٩] شهداء معركة يعبد هم: الشيخ عز الدين القسام، يوسف عبد الله الزيباوي، سعيد أحمد عطية المصري.

وشهيداً واحداً قبيل المعركة،[٦٠] ومفقوداً واحداً بعدها،[٦١] فهذا يعني أن ثمانين قسّامياً مدرجين في هذا الجدول وحده شاركوا في أغلبيتهم العظمى[٦٢] في الثورة الكبرى، ومعظمهم من القادة والمسؤولين؛ ذلك بأن رتبة كل منهم واضحة في هذا الجدول الذي يضم أساساً خمسين من المؤسسين والقادة والمسؤولين، وخمسة وثلاثين من المجاهدين. كذلك يتضح من الجدول نفسه أن بين هؤلاء أحد عشر شهيداً قضى في الثورة الكبرى، منهم تسعة قضوا في الميدان في معارك "فراضية" و"عرابة البطوف" و"وادي الطبل" و"اليامون" و"بيت جن" و"الكرمل" وغيرها،[٦٣] واثنان قامت السلطات بإعدامهما.[٦٤] ولعل نسبة الشهداء بين القادة والمسؤولين في عصبة القسّام هي من أعلى مثيلاتها في ثورات العالم المعاصر، إذ يثبت لنا الجدول استشهاد خمسة عشر قائداً قسّامياً مسؤولاً من مجموع خمسين مؤسساً وقائداً مسؤولاً؛ وهذه نسبة ثلاثين في المئة.[٦٥]

موقفه من بريطانيا ومؤيديها

موقف العداء من بريطانيا لا يناقَش بالنسبة إلى الرعيل الاستقلالي الذي ينتمي دروزة إليه. وقد كان هو بالذات من كبار دعاته. لكن هذا الموقف العقائدي الصلب كان بعض الأقنعة يرتفع عنه بتأثير من كبار السياسيين العرب الذين لم يسايروا بريطانيا فحسب، بل كانوا أيضاً رجالاتها في المنطقة العربية، كنوري السعيد مثلاً؛ فنقرأ في المذكرات بين الحين والحين عن بوارق أمل تهب عبر مباحثات يجريها زعماء عرب هنا أو هناك. وعن إمكان تأثير نوري السعيد في إقناع بريطانيا بهذه النقطة أو تلك. هذا ما قرأناه لصاحب المذكرات أيام الإضراب الكبير سنة ١٩٣٦، وأيام الأحاديث عن إنشاء "جامعة عربية ما"، إذ إنه يكتب في نهاية كانون الثاني/يناير ١٩٤٤ معلقاً على تصريح إيدن الشهير الذي قال فيه إن الحكومة البريطانية تعطف على ما دار من مشاورات بين العرب بشأن الوحدة العربية:

---

[٦٠] الشهيد محمد قاسم خلف، الذي استشهد برصاص البوليس قبيل المعركة.

[٦١] المجاهد المفقود أسعد مفلح الحسين.

[٦٢] قلنا الأغلبية العظمى لأن الشيخ كامل القصاب، وهو من القساميين المؤسسين، كان غادر حيفا، فضلاً عن احتمال عدم مشاركة اثنين أو ثلاثة في المرحلة الثانية من الثورة الكبرى، لأسباب صحية أو لغيرها (حسن شبلاق [قسامي] مقابلة مع الباحثة. بيروت، ١٩٧٣/٢/١٠).

[٦٣] هم الشهداء: الشيخ محمود الحنفي، الشيخ طه قاسم حوراني، الشيخ محمود الخضر، عبد الغني درويش، الشيخ ديب، أسعد الصبيحي، رشيد الطيراوي، الشيخ عطية أحمد عوض، مسعود نصار.

[٦٤] هما الشيخ فرحان السعدي، ويوسف سعيد أبو درة.

[٦٥] راجع: الحوت، "الشيخ المجاهد عز الدين القسام..."، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩.

> وهذه مرة جديدة تضاف إلى المرات السابقة التي يسجل فيها عطف الحكومة الإنكليزية على مشاورات الوحدة. ونرجو أن تكون جادة صادقة.[٦٦]

أمّا في شأن موقع نوري السعيد لديه، فمن الواضح إعجابه الشديد به، وربما ابتدأ ذلك الإعجاب من مشاركة الرجلين في العهد العربي الأول. لكن نوري السعيد تغير، إذ أصبح رجل بريطانيا الأول في المنطقة العربية، من دون أن يتأثر إعجاب دروزة به، ومن دون أن يعرج مرة واحدة في كل المذكرات على المواقف المتطورة لنوري السعيد نحو المزيد من التبعية لبريطانيا. فهو يقول في يومياته بتاريخ ١٩٣٧/١٢/٢٢:

> ومما يلحظ من أسلوب ورصانة نوري وسعة أفقه السياسي، أنه قد يكون من أحسن الشخصيات التي يمكن أن تلعب دوراً بتفوق ولباقة وأنه يستسيغ بفكرة إيجاد وحدة عربية وهو المطمح الذي ما فتىء يفكر فيه ويعمل له منذ بضع سنين، وإنه لمن الحق أنه يمكن أن يعد من رجالاتنا الأفذاذ إن لم يكن الوحيد الذي لا يبارى في طبقته وأسلوبه وأفقه.[٦٧]

نتوقف عند مشروع نوري السعيد المعروف بـ"الكتاب الأزرق" سنة ١٩٤٣، يوم كان رئيساً للحكومة العراقية. وقد تقدم فيه بحل لقضية فلسطين قائم على الاعتراف لليهود بحكم شبيه بالحكم الذاتي، وذلك بإنشاء إيالات خاصة بهم ضمن دولة سورية العظمى والحلف العربي. وأمّا أهم النقاط التي خلص إليها المشروع من أجل الحل المنصف الوحيد لضمان السلم، فهي: إعادة الوحدة السورية، وإنشاء عصبة عربية من العراق وسورية، والاعتراف لليهود بالحكم الذاتي.[٦٨]

يعلق دروزة على "الكتاب الأزرق"، متناولاً الجانب "الوحدوي" العربي منه فقط، شارحاً موقف نوري السعيد:

---

[٦٦] م ٥/ ص ٢٩.

[٦٧] م ٣/ ص ١٦١.

[٦٨] نوري السعيد، "الكتاب الأزرق" (بغداد: مطبعة الحكومة، ١٩٤٣)، ص ١٣ – ١٥.

.... وكان [نوري السعيد] يعتقد هو وكثيرون من رجالات العرب أن هذا الاتحاد حتى لو تم مبدئياً تحت هيمنة الإنكليز فإنه يكون منطَلَقاً لتطور اتحادي استقلالي عربي أجمع.[٦٩]

ولا يعرج دروزة لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر على الحكم الذاتي لليهود الذي يقترحه نوري السعيد. لكننا نقرأ له في يومياته بتاريخ ١٩٤٣/٧/٢ تعقيباً على تصريحات لنوري السعيد:

واحتوت [التصريحات] فيما احتوته توكيداً بكون العراق متضامناً مع الحلفاء، وبأن بتروله في متناولهم، وأراضيه وخطوطه ومواصلاته في استعمالهم.... وبأنه يأمل أن يساهم في بناء العالم الجديد إلى جانب الدول المتحالفة، وبأن العراق والعرب عامة يعلقون على نتائج هذه الحرب مصيرهم وآمالهم....[٧٠]

وفي المرحلة نفسها، ينقل تصريحاً للأمير عبد الإله، أدلى به خلال مروره بالقاهرة عائداً من لندن إلى بغداد، ونشرته مجلة "المصور" في ١٩٤٣/١٢/١٧:

إن جميع الوزراء وسائر رجال الدولة في بريطانيا ينظرون إلى الأمم العربية في هذه الحرب كأعظم ركن من الأركان التي تعتمد عليها الديمقراطيات في بلوغها النصر، وسمعت من الكثيرين إطراء عظيماً للموقف الذي تقفه الأمم العربية في تأييد الحلفاء ومساعدتهم مما كان له الأثر العظيم في ما بلغوه من النصر في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وكان جميع من حادثتهم وحادثوني في موضوع الوحدة يعربون عن الفوائد التي تعود على البلاد العربية من تحقيق ذلك....[٧١]

ويعلّق هنا دروزة بقوله:

---

[٦٩] م ١/ ص ٤١٥.

[٧٠] م ٤/ ص ٤٨٩.

[٧١] م ٤/ ص ٦٣٥.

> وهذا كلام قوي، ونرجو أن يكون للقضايا العربية وخاصة لقضية فلسطين نصيب صادق في هذا الموقف وفي هذا التقدير من الحلفاء للعرب.[٧٢]

وكذلك يعلّق على موقف صديقه شكري القوتلي من الحلفاء في يومياته بتاريخ ١٩٤٤/٩/١٥:

> ورأينا شكري القوتلي يرسل تهانيه إلى بريطانيا وواشنطن وديغول على النصر، ويجعل أسلوبها أسلوب المنوه بآمال العالم في توطيد الحق والحرية والمساواة والسلام العادل. وطبعاً هذا معناه أن الجماعة فاهمون وحاسبون الحسابات الكثيرة....[٧٣]

وإزاء كلمات أُخرى مؤيدة للحلفاء، يشن دروزة حرباً لا هوادة فيها ضد أصحابها؛ فقد كانت ردة فعله عنيفة جداً تجاه قدوم عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني إلى القدس خلال الحرب، وإلقاء كل منهما حديثاً في الإذاعة، ومن دون أن يوضح ما إذا كان استمع إلى الحديثين أم لا، أو قرأهما في صحف فلسطين أم لا (وأي من الوسيلتين كانت متوفرة لديه)؛ فهو يقول:

> ومما علمناه (لعلنا قرأناه في الصحف) أن عباس العقاد وإبراهيم المازني دُعيا إلى فلسطين ليذيعا بعض الأحاديث من إذاعتها،[٧٤] ولعل عجاجاً [يقصد عجاج نويهض مدير القسم العربي في الإذاعة] كان هو المقترح أو الداعي، وكان هذان الكاتبان يكتبان في الصحف المصرية مقالات فيها تأييد للإنكليز ودعوة إلى مؤازرتهم. ومن المحتمل أن تكون خصوصية فلسطين في العداء للإنكليز سبباً في دعوة هذين

---

[٧٢] م ٤/ ص ٦٣٥.

[٧٣] م ٥/ ص ١٨٦.

[٧٤] راجع: عباس محمود العقاد، "الحرب بعد اثني عشر شهراً وستة أسابيع"، في: "حديث الإذاعة: كتاب يحتوي على المختار من الأحاديث المذاعة من دار الإذاعة الفلسطينية لعدد من العلماء والأدباء في البلاد العربية"، الجزء الأول (القدس: القسم العربي في دار الإذاعة الفلسطينية، ١٩٤٢)، ص ١٩٢ – ١٩٨؛ إبراهيم عبد القادر المازني، "العرب وموقفهم من الحرب الحاضرة"، في: المصدر نفسه، ص ١٩٩ – ٢٠٥.

الكاتبين المشهورين.... وقد لبى الكاتبان الدعوة دون أن يفكرا في بشاعة ما يقدمان عليه...[٧٥]

بدايةً، كيف يجوز لدروزة تمجيد هتلر والنازية التي كانت هي الأُخرى لا تقل عنصرية عن أي استعمار أو انتداب؟ ونهايةً، كيف يقف هو المؤرخ موقفين متناقضين من مؤيدي الحلفاء؟ كيف يجوز للقوتلي وعبد الإله ونوري السعيد ما لا يجوز للعقاد والمازني؟ وكيف يمكن لدروزة أن يعلق معجباً بتصريح عبد الإله إلى حد الرجاء بأن يكون "لقضية فلسطين نصيب صادق في هذا الموقف وفي هذا التقدير من الحلفاء للعرب"، بينما لا يتمالك نفسه عن التعرض للكاتبين الكبيرين إلى حد الإشارة إلى حادث إطلاق رصاص يروي فيه أن المقصود كان إصابتهما معاً، فيقول: "وبعد أن أذاع كل منهما حديثاً، حدث حادث عظيم، حيث أنهما [يقصد العقاد والمازني] لم يكادا يفارقان بناء المحطة [الإذاعة] حتى فوجئا برصاص من قِبل أشخاص كانوا يترصدونهما..."،[٧٦] وهو يقول هذا بينما كان حديثا الكاتبين في يومين مختلفين.[٧٧] والواقع أنه لم يرد لهذا الحادث ذكر في الصحف المحلية، ولا يعقل أساساً أن يتعرض كاتبان بوزن العقاد والمازني للرصاص من دون أن تهتز أسلاك البرق في العواصم العربية يومذاك.[٧٨]

أمّا فيما يخص صديقه الاستقلالي عجاج نويهض، مدير الإذاعة، فهو لو سأله أو سأل أي صديق استقلالي آخر – لاحقاً – لعلم أن قبوله للعمل في الإذاعة كان مشروطاً، وأنه كان بناء على قرار اتخذه "الاستقلاليون" في القدس، وأن القرار كان قائماً على أن النضال السياسي لا مجال له خلال الحرب، وخصوصاً بعد إعلان العرب

---

[٧٥] م ٤/ ص ٥٥ – ٥٦.

[٧٦] م ٤/ ص ٥٦.

[٧٧] قدم المازني حديثه في ٨ رمضان ١٣٩٥، الموافق ١٠/١٠/١٩٤٠ (جريدة "الدفاع"، ١٠/١٠/١٩٤٠)؛ وقدم العقاد حديثه في ١٤ رمضان ١٣٩٥، الموافق ١٦/١٠/١٩٤٠ (جريدة "الدفاع"، ١٦/١٠/١٩٤٠).

[٧٨] لم أعثر في جريدة "الدفاع" طوال إقامة العقاد والمازني في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠ بالقدس، على خبر إطلاق النار. وقد سألت خمسة كتّاب وأدباء كانوا مقيمين بفلسطين في المرحلة نفسها، فنفوا جميعاً مثل هذا الحادث. غير أن اثنين منهم تذكرا حادث إطلاق رصاص على فخري النشاشيبي، ولم يجزما أنه حدث في خريف سنة ١٩٤٠ (أُجريت الأسئلة في شباط/ فبراير ١٩٩٧).

موقفهم مع الحلفاء، وكذلك إعلان الأحزاب السياسية كلها في فلسطين الموقف نفسه.[٧٩]

والمستغرب عدم توقف دروزة عند الاحتفال التكريمي للعقاد والمازني الذي دعا إليه مدير الإذاعة أدباء وشعراء ووجهاء من مختلف المدن الفلسطينية، وبحضور عدد من كبار المسؤولين الإنكليز، لكنه لم يتكلم بالإنكليزية التي كان يتقنها وإنما بالعربية، فقال: "إني أتكلم الآن في هذا المقام بالعربية لأنها في هذا الحفل لغة الأكثرية، وليس هذا احتكاراً أو من قبيل العصبية بل هو معنى جميل من معاني الشورى أو الديمقراطية...."؛[٨٠] والمستغرب أكثر هو عدم توقفه عند الكثير من أدباء العرب الآخرين الذين جاؤوا القدس وقدموا مختلف الأحاديث التراثية والأدبية والدينية، وخصوصاً في شهر رمضان المبارك من كل سنة؛ وهو من المناسبات الدينية التي كانت الإذاعة تُفتتح فيها كل يوم بنداء: "هنا القدس، هنا مدينة عمر، هنا بلد الإسراء والمعراج."[٨١] وقد كانت الإذاعة تُسمع جيداً في تركيا كما روى في المذكرات.

ولو تساءلنا أخيراً عمن احتل في مذكرات المؤرخ دروزة المكانة الكبرى، لكان الجواب هو المفتي الحاج أمين الحسيني، الذي عمل دروزة معه منذ بداية الثلاثينات، والذي استمر يعتبره "الزعيم الأوحد" حتى التحق بالهيئة العربية العليا. وما مر عام من الزمن حتى انقلب عليه نهائياً، فاستقال من الهيئة العربية العليا في تموز/ يوليو ١٩٤٧. وسجل انتقاداته ضد المفتي في القسم الأخير من مذكراته بعنف شديد، مرات متعددة، وهذا بعض ما قاله:

> وقد كان يشغل نفسه كثيراً بالتوافه والجزئيات والمراسم والتشريفات، ولا يعير التنظيم والنظام في العمل أي قيمة، ويجعل الاعتبارات الشخصية الضابط في أعماله ومناسباته واجتماعاته وتفكيره، فلا يطيق شخصاً يظهر معه، ولا يهضم نقداً يوجه إليه، فضلاً عن موقف مناوىء له، ويميل إلى أن يكون هو كل شيء في كل شيء، ويجعل الفناء فيه هو علامة

---

[٧٩] "مذكرات عجاج نويهض: ستون عاماً مع القافلة العربية" (بيروت: دار الاستقلال، ١٩٩٣)، ص ٢٥٥ – ٢٥٨.

[٨٠] جريدة "الدفاع"، ١٧/١٠/١٩٤٠.

[٨١] راجع: الفصل المتعلق بدار الإذاعة الفلسطينية، في: "مذكرات عجاج نويهض..."، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠ – ٢٩٤. وراجع: البرامج اليومية للإذاعة في جريدة "الدفاع" ١٩٤٠ – ١٩٤٣، وكانت تنشر على الصفحة الأولى أو الثالثة، وابتدأت بعنوان: "برامج الإذاعة: المحطة الفلسطينية"، ومن تاريخ ٨/١٠/١٩٤١ أصبحت تنشر تحت عنوان: "مصلحة الإذاعة الفلسطينية".

> الإخلاص له ولقضية الوطن معاً، ويكثر من تشكيل الحلقات والدوائر، ويميل إلى المباحثات الفردية والهمسية والسرية، ويحرص كثيراً على استماع كل شيء عن كل إنسان.... ولقد انكشفت هذه الخصال فيه أكثر من مرة.... انكشفت في فلسطين حتى جاء وقت كاد ينطفىء فيه.... وانكشفت في أوروبا فكان الخلاف الشديد بينه وبين رشيد عالي... وانكشفت أخيراً في مصر وبلاد العرب حتى ضعف اسمه وثقل ظله، بعد أن وصل كذلك إلى القمة في دوي الاسم والهيبة والرعاية ونفوذ الكلمة....[٨٢]

هل اكتشف دروزة فجأة تلك الصفات التي أوردنا بعضها أعلاه؟ هو يقول أنه اكتشفها من قبل، لكنه كان في نقده للمفتي يمر مرور الكرام، حتى ثار ثورته الأخيرة، مستقيلاً من الهيئة العربية العليا، ومن الساحة السياسية العملية.

لسنا في مجال التعليق على رأيه العنيف في المفتي، أو في سواه. لكن كان يُنتظر من المؤرخ الكبير أن يختم مذكراته عن فلسطين ومأساتها وخلاصها، لا عن المفتي وفرديته، وهو الذي كان من أعوان المفتي المقربين طوال عشرين عاماً، وإلى الحد الذي بدا فيه من خلال مذكراته "مجلسياً" أكثر منه "استقلالياً".

خاتمة

لو أردنا خاتمة عاطفية وطنية، لاكتفينا بالقول إن مذكرات محمد عزة دروزة صفحات من تاريخ الحركة العربية، ومن تاريخ فلسطين، من ذكرياتها الحميمة، من نابلسها وقدسها وقراها، من رجالاتها، من نضالها المتواصل، من كل حدث هز البلاد...

لكننا لو عدنا إلى أهدافنا التي طرحناها بدايةً بشأن البحث عن الشاهد والمفكر والمؤرخ في مذكرات المؤرخ الكبير، لتوصلنا إلى أن دروزة الشاهد كان هو المبدع والمتفوق على دروزة المفكر أو المؤرخ. وهذا على الرغم من التفاوت بين نوعين من الشهادات تقدم بهما: فهو في شهاداته الحسية والإنسانية كان دوماً ذاك المبدع والمتفوق؛ أثبت في ذكرياته عن مدينته نابلس أنه الشاهد الأول؛ وهو في ذكرياته عن العذاب الإنساني حيثما شاهده، كان إنساناً كبيراً، وكان كاتباً بليغاً. بينما تفاوتت "شهاداته" عن خلاصة تجاربه النضالية: أبدع حين تكلم شاهداً على الثورة العربية

---

[٨٢] م ٥/ ص ٥٩٠.

والعهد العربي الفيصلي في دمشق، وتميزت شهادته تلك بتحليل المجاهد ابن الرعيل الأول. لكن حين تكلم شاهداً على النضال الفلسطيني، فهو قد شهد على مواقف فردية أو محلية، بينما أحجم عن شهادة جامعة تقول لنا لماذا جرى لفلسطين حقاً ما جرى، بتحليل الشاهد صاحب الذكريات والمشارك في صنع القرار والأحداث، إن لم يكن بتحليل المؤرخ الشمولي.

أمّا بالنسبة إلى "جديد" الفكر الذي طرحه، فالمذكرات من بدايتها إلى نهايتها لا تقارب الجدليات الفكرية، وربما كان في ذلك ابن عصره، حيث اكتفى الرواد من جيله بشعار "العروبة والإسلام وجهان لعملة واحدة"، من دون عناء الغوص في المحيطات. لكن هذا لا يعني أنه لم يكن له الكثير من المواقف الفكرية في هذه المسألة أو تلك، منها ما شرحها، ومنها ما كانت تفصيلات أعماله السياسية وأعمال رفاقه تكفي لاستنتاج روح العصر وفكر العصر.

وأمّا بالنسبة إلى "إنصاف المؤرخ، فالحكم ليس سهلاً؛ فلو حسبنا هذا السفر كتاب مذكرات لقلنا إنه من حق صاحب المذكرات أن يروي تجاربه ومشاعره وانفعالاته وطبيعة علاقاته بالآخرين، كما يريد. أمّا لو حسبناه كتاب تاريخ، لكونه في حقيقته مذكرات مؤرخ كبير، وقارنا "المذكرات" مع كتبه السابقة، لوجدنا الاختلاف في مسألة "الإنصاف" بيّناً. إن أحكامه على الأشخاص أنفسهم متناقضة؛ فالذي كان شهد له بموقفه الوطني الصلب في كتبه السابقة، نفى عنه في "المذكرات" هذه الصفة.[٨٣] وتتكرر التناقضات. وما لم يكن في حقيقته تناقضاً قد يقع في باب الناسخ والمنسوخ، أو يستمد "شرعيته" من طبيعة المذكرات حيث يكون الكاتب أكثر صراحة منه في كتاباته الأُخرى.

وفي مجال تصنيف مذكراته، فإن دروزة نفسه تقدم بشرحين مختلفين: فمن ناحية قال إن هذه المذكرات ليست "تاريخاً وثائقياً"، وطالب بعدم نقدها ككتاب تاريخ؛ لكنه من ناحية أُخرى طلب إعادة طباعة كتابه عن "القضية الفلسطينية" بجزأيه وضمه إلى المذكرات لاحقاً، لأنه يعتبر كتابه ذاك من باب المذكرات. وبمعنى آخر، فهو في الوقت الذي يكاد ينفي صفة التأريخ والتوثيق عن مذكراته (بينما الصفتان متوفرتان نسبياً)، يقر أخيراً بأن أهم كتاب له عن القضية الفلسطينية كان مجرد مذكرات.

---

[٨٣] قارن للمثال ما ورد بشأن موقف الشيخ عبد القادر المظفر عقب تظاهرة يافا الشهيرة سنة ١٩٣٣، حين أقدمت السلطات على اعتقال الكثيرين من الرجال المعروفين، منهم المظفر ودروزة، ثم عرضت عليهم الخروج من السجن شرط توقيع تعهد بحسن السلوك، فرفض المظفر وحده التوقيع مفضلاً السجن. راجع للمقارنة: دروزة، "القضية الفلسطينية..."، مصدر سبق ذكره، ص ١١٦؛ ودروزة، م ١/ ص ٨٥٣ –٨٥٦.

ربما كان التناقض أعلاه ناجماً عن كون المؤرخ الكبير قال ما قاله يوم كان قد جاوز التسعين من عمره، وهو تناقض – لعمري – مغتفر، لكن هذا لا يغفر للذين أشرفوا على إصدار مذكراته. الظلم الفادح الذي تعرضت له مذكرات دروزة كان غياب مهمة "التحقيق" عنها غياباً كلياً. وعلى الرغم من تفويض المؤرخ إلى الناشر حذف جملة هنا أو كلمة هناك، فالظاهر أن حتى هذه المهمة لم تتحقق. أمّا المطلوب من التحقيق، فهو حتماً يفوق كثيراً ذلك التفويض؛ فالمرحلة الأولى منه كانت تتطلب فرز "المذكرات واليوميات" الأصيلة عن كل ما عداها من منقول وملخَّص ومؤرشَف، حتى لو أدت هذه العملية إلى إنقاص حجم المذكرات إلى ثلثها؛ وأمّا المرحلة الثانية، فكانت ضرورة القيام بتحقيق دقيق واف، أي بكل ما تحمله كلمة التحقيق من أوجه ومعان، مع عدم حذف أي رأي أو تعليق للمؤرخ الكبير.

لو استطعت أن أتصور مذكرات دروزة مع الفرز والتحقيق المطلوبين، لقلت: إنها حقاً مذكرات شيخ المؤرخين.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf